عصر قوة الخلافة العباسية

عصر قوة الخلافة العباسية عصر لعل سائل يسأل لماذا تناولت هذا الموضوع من هذه النقطة، أي من خلافة الخليفة الناصر لدين الله، واطلقت عليه. قوة الخلافة العباسية، ولم تلحقه بالفترات السابقة فأقول وبالله التوفيق؟. يعد هذا العصر بحق عصر قوة الخلافة العباسية ، اذ تمتع الخلفاء العباسيين فيه بكامل نفوذهم، وسيادتهم على معظم ارض العراق ولعبوا دوراً مهما في الاحداث الداخلية والخارجية، وأصدروا المراسيم المتعلقة بتولية ولاة العهد، وتولية أمراء الأطراف التابعين للخليفة بشكل مباشر، أو غير مباشر، كما سكوا النقود بأسمائهم الخاصة مع القابهم، وألقيت الخطب باسمهم فقط، وخلت بغداد من الجند الاجنبي، ويعد الخليفة الناصر لدين الله من أوائل هؤلاء الخلفاء الذي جنى ثمار من سبقه من الخلفاء الذين تصدوا بشكل حازم للسيطرة السلجوقية، ودفعوا حياتهم ثمنا لهذا التحدي .

1- الخليفة العباسي الناصر لدين الله وزوال النفوذ السلجوقي.

2- حركة الفتوة

3- الخليفة الظاهر بامر الله

4- الخليفة المستنصر بالله

5- الخليفة المستعصم بالله .

1- الخليفة الناصر لدين الله 575-622هـ/ 1179-1225م

هو أبو العباس احمد بن الحسن المستضيء بالله ولد يوم الثلاثاء : العاشر من رجب من سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، وامه ام ولد تركية اسمها زمرد ،خاتون ادركت خلافته وعاشت في ايامه اربعا وعشرين سنة، وكانت راغبة في الخير والصدقات، ولها من الصدقات والوقوف ببغداد وغيرها الشيء الكثير، بويع بالخلافة يوم الاحد غرة ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة وبايعة الحجاج من اهل خراسان ، الذين كانوا في طريقهم الى اداء فريضة الحج من تلك السنة . ولم يل الخلافة احد اطول من مدة خلافته، فانه اقام فيها سبعة واربعين سنة، ولم تزل مدة حياته في عز وجلالة ، وقمع الأعداء ، واستظهار على الأعداء، ولم يجد ضيما، ولا خرج عليه خارجي الا قمعه ولا مخالف إلا دفعه، وكل من أضمر له سوءا رماه الله بالخذلان وكان شديد الاهتمام بمصالح الناس، ولا يخفى عليه شيء من احوال رعيته كبارهم وصغارهم، وله اصحاب اخبار في اقطار البلاد، يوصلون اليه احوال الملوك الظاهرة والباطنة وكانت له حيل ظاهرة ومكايد غامضة وخدع لا يفطن لها احد، يوقع الصداقة بين ملوك متعادين وهم لايشعرون ويوقع العداوة بين ملوك متفقين

وهم لا يفطنون. ولما دخل رسول صاحب مازندران بغداد كانت تأتيه ورقة كل صباح بما عمل في الليل، واختلى هذا الرجل بامراة دخلت اليه من باب السر ليلا، فجاءته الورقة :صباحا : كان عليكم دواج فيه صورة الفيلة، فتحير هذا الرجل وخرج من بغداد، وفي قرارة نفسه ان الخليفة يعلم الغيب وفق مفهومهم وجاءه رسول خوارزمشاه فقيل له ارجع فقد عرفنا ما جئت له فرجع وهو يظن ان الخليفة العباسي يعلم الأسرار، وهو لا يعرف ان الأخبار تصله عن طريق المخبرين .

وكان الناصر لدين الله اذا اطعم أشبع واذا ضرب أوجع وله مواطن يعطي فيها عطاء من لايخاف الفقر . جاءه رجل من الهند يحمل ببغاء تقرأ (قل هو الله احد) فاستقبل في القصر ،وفي الليل ماتت الببغاء، فجلس الرجل يبكي لسوء حظه، حيث لم يشاهد الخليفة الببغاء تقرأ القرآن فقال له الفراش اين الببغاء: قال الرجل لقد ماتت، قال الفراش كم كنت تطمع أن يعطيك الخليفة ؟ قال :الرجل خمسمائة دينار، وكان الخليفة قد اعد له خمسمائة دينار، وهذا من عجيب ما اتفق للناصر لدين الله وكان الملوك والأكابر إذا جرى ذكر الخليفة الناصر خفضوا أصواتهم اجلالا له واحترما لمكانته وخوفا منه. كما كان يجمع المعلومات عمن يريد قصده ويفاجئه بها، قال عنه ابن النجار دانت السلاطين الناصر، ودخل في طاعته من كان من المخالفين، وذلت له العتاة والطغاة، وانقهرت بسيفه الجبابرة واندحض اعداؤه، وكثر انصاره، وفتح البلاد العديدة، وملك من الممالك ما لم يملكه احد ممن تقدمه من الملوك، وخطب لــه ببلاد الأندلس والصين، وكان اشد بني العباس، تنصدع لهيبته الجبال وكان حسن الخلق لطيف الخلق، كامل الظرف فصيح اللسان بليغ البيان لسه التوقيعات المسددة، والكلمات المؤيدة وكانت أيامه غرة في وجه الدهر، ودرة في تاج الفخر)). وكان نقش خاتمه (رجائي من الله عفوة) ، وصادف توليه الخلافة بركة للناس بشكل عام، إذ أن الناس قبل توليه الخلافة قد أصابهم الجدب وغلو الأسعار وقلة المعاش وكثرة الأمراض والوباء فلما بويع بالخلافة زال ذلك ببركة بيعته حتى درت الأمطار وتراخت الأسعار، وهنا بعضاً ببركته، فكان كما قال الشاعر أبو جعفر محمد بن العلوي : فجدت وجاد الغيث وانقشع المحل لها حاسب إلا إذا حسب الرمل وكم من نعماء ليس بمدرك فجمع الله شمل الإسلام والمسلمين ببره وجوده، ثم أنه عمر المساجد وجدد المشاهد، وبنى الأربطة والمدارس ، وأثر الآثار الجميلة، واشتغل في رواية الحديث في بداية حكمه، واستناب نوايا له في الإجازة عنه و التسميع، واجرى عليهم الجرايات، وكتب للملوك والعلماء إجازات ثم انه جمع كتابا في الاحاديث النبوية الشريفة سماه (روح العارفين) جمع فيه سبعين حديثا، وقد وصل هذا الكتاب إلى حلب حيث سمع بها، وقد أجاز سماع هذا الكتاب لعدد من الرواة . وسعى وقد جدّ هذا الخليفة في التخلص من سيطرة السلاجقة لتوسيع سيادة الخليفة على مناطق لم تكن خاضعة له، بل كانت خاضعة الأمراء الأطراف مثل تكريت و همدان والاحواز وداقوقا غيرها، كما أنه حارب السلاجقة وقتل طغرل السلجوقي وحمل رأسه إلى مدينة بغداد، كما

عمر دار المضيف للصادر والوارد من الحاج وغيرهم للفطور في شهر رمضان، ووقف الكتب المفيدة الفقهية وغيرها في خزائن الكتب وجعلها لطلبة العلم . وعندما تسمى السلطان صلاح الدين بلقب الناصر بعث الناصر إليه مبعوثا يعاتبه وقال له : كيف تتلقب بلقبي؟ وأنا الناصر . وهذا من قبيل المعاتبة لا الانكار ، لأن الخليفة الناصر لدين الله كان يعرف مدى احترام صلاح الدين الأيوبي له. ولما تولى الخليفة الناصر لدين الله بعث التقليد بولاية البلدان لكل من أيد الخليفة العباسي ومنهم صلاح الدين الأيوبي، وكتب إليه صلاح الدين كتابا جاء فيه : (والخادم ولله الحمد - يعدد سوابق في الإسلام، والدولة العباسية لا يعمرها أولية أبي مسلم لأنه والى ثم وارى ولا آخرية طغرل بيك لأنه نصر ثم حجر، والخادم خلع من كان ينازع الخلافة رداءها - يقصد الفاطميين وأساغ الغصة التي ادخر الله للاساغة في سيفه ماءها، فرجل الأسماء الكاذبة على المنابر ، واعز بتأييد إبراهيمي، فكسر الاصنام الباطنة بسيفة الطاهر) وعندما فتحت بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي، نقش الخليفة الناصر لدين الله لوحا بيده وانفذه ليعلق على باب بيت المقدس كتب فيه: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون، الحمد لله الذي أنجز وعده ونصر عبده .....) وأنشأ الرباط الذي بمشرعة الكرخ والتربة المجاورة له. وقد أصيب في بصره في آخر عمره وقيل فقده كله، ولم يشعر بذلك احد حتى الوزير، فقد كانت له جارية علمها الخط، وكانت تخرج التوقيعات بخطه، ولا يعرف احد انها ليست بتوقيعات الخليفة الناصر لدين الله ، وعندما توفي السلطان الناصر لدين الله صلاح الدين الأيوبي، في سنة 589هـ / 1193م بعث بلامة حربه وسيفه وعدة حربه وفرسه وماله وهو دينار واحد وستة وثلاثون درهما حيث لم يخلف من المال سواها إلى الخليفة الناصر لدين الله، وهذا من سبيل الوفاء للخليفة ومكانته لدى صلاح الدين الأيوبي، باعتبار أن الخليفة العباسي هو زعيم المسلمين الديني والسياسي في ذلك الوقت، ولهذا حتى ترك له كل ما يملك، وان لم أخطيء فقد عد صلاح الدين الخليفة الناصر لدين الله انه هو وارثه وهو ابوه وهو احق بارثه من اولاده وبناته وأقاربه، وهذا هو منتهى الشهامة عند صلاح الدين الأيوبي، فقلد الخليفة أبناء صلاح الدين الولايات التي طلبوها منه، فولى مصر لإبنه عماد الدين عثمان الملك العزيز) ودمشق لإبنه الافضل (نورالدين) علي وحلب لإبنه الملك الظاهر غياث الدين) ، وفي عهده قضي على آخر نفوذ للسلاجقة حيث مات السلطان طغرلبيك شاه بن ارسلان بن طغربيك بن محمد بن ملك شاه وهو آخر ملوك السلجوقية إذ توفي في رمضان من سنة ستمائة واثنان وعشرون للهجرة)

حركة الفتوة :

الفتوة في اللغة تعني الكرم والفتى هو الشخص الكريم ، وكما مر بنا عند الحديث عن العيارين والشطار في العصر البويهي، وكيف كان يطلق عليهم الفتيان، وما لعبوا من دور بارز في مقاومة الوجود البويهي في العراق، فقد ظلت هذه الحركة تأخذ طابعا مختلفا ، فهذا يتهمهم بالصفات الجيدة، وهذا يتهمهم بالصفات القبيحة وهكذا ففي سنة 493هـ / 1099م زاد امر العيارين بالجانب الغربي من بغداد، فأمر الخليفة كمال الدولة بتهذيب البلد، فأخذ جماعة من اعيانهم، وطلب الباقين وفي سنة 512هـ / 1118م ازداد خطر العيارين بالجانب الغربي من بغداد فعبر اليهم نائب الشحنة في خمسين غلاما تركيا فقاتلهم، فانهزم منهم، ثم عبر اليهم في اليوم التالي بمائتي غلام، فلم يظفر بهم، وقاموا بنهب محلة قطفتا ، وظهر العيارين ببغداد سنة 530هـ/ 1135م، وقتلوا من قدروا عليه، ولما دخل العيارون دار الرقيق تبعهم الشحنة ودار بين أهل الحي والشحنة قتال وأحرقت عدد من الدور وتعاون مع العيارين بعض المسؤولين من امثال ابن الوزير و ابن قاروت اخو زوجة السلطان السلجوقي، فتأذى الناس بسببهم، فأرسل الشحنة إيلدكز الى السلطان فقال له السلطان: ان السياسة قاصرة والناس قد هلكوا، فقال ياسلطان العالم اذا كان عقيد العيارين ولد وزيرك وأخ امرأتك فأي قدرة لي على المفسدين؟ وشرح له الحال فقال له السلطان الساعة تخرج وتضرب اعناقهم، وإلا ضربت عنقك، فخرج وكبس بعضهم وضرب اعناقهم، وكانا هذين الشخصين لهما حصة فيما يسلبه العيارين من الناس ، وظهر العيارون مرة أخرى في سنة 532هـ/1137م، حيث عظم امر ابن بكران العيار بالعراق، وكثر اتباعه وصار يركب ظاهرا في جمع من المفسدين، وخافه الشريف أبو الكرم الوالي ببغداد، فأمر ابا القاسم ابن اخيه حامي باب الازج ان يشتد عليه ليأمن شره. وكان ابن بكران يكثر المقام في السواد، ومعه رفيق يعرف بابن البزاز، فانتهى أمرهما إلى انهما ارادا ان يضربا باسمهما سكة فى الانبار ، وقد هدد الشحنة والوزير شرف الدين والي بغداد بالقتل 6 ان لم يقتل ابن بكران فدبر له مقتلة وتخلص منه وظل الأمر هكذا حتى جاء الخليفة الناصر لدين الله وهذب حركة العيارين والشطار أو حركة الفتيان وربطها بشخصه وجعل لها نظاماً خاصاً، وفق تقاليد معروفة منها لبس سراويل الفتوة وتناول الماء الممزوج بشيء من الملح وشد حزام في الوسط . فضلا عن اضفاء الطابع الديني عليها من خلال شخص الخليفة العباسي الهاشمي، وكونه قائدا لهذا التنظيم الشعبي ان صحت تسميته وتوجيهه الوجهة التي يريدها الخليفة ضد أعدائه او الطامعين في العراق من امثال السلاجقة واتباعهم وصل الخليفة الناصر لدين الله الى الحكم والسلاجقة لازالوا متنفذين في حكم العراق، ويعملون ما يشاؤون وفق اهوائهم، ضاربين عرض الحائط أي مظهر من مظاهر احترام الناس، فضلا عن الخليفة العباسي الذي يستمدون منه شرعية حكمهم، كما حجر السلاجقة على الخلفاء وحددوا لهم خروجهم ونفقاتهم وعدد الأفراد الذين يحمون الخليفة ورواتبهم، كما مر بنا في الفصل الثاني، فمساحة العراق محدودة و امكاناته الاقتصادية محدودة أيضا، والخليفة

يريد ان يفعل شيئا ما تجاه السلاجقة، الذين لم يدعوا شيئا من الإهانة إلا فعلوه تجاه الخلفاء بالذات، وتجاه عامة الناس بشكل عام، ومنع السلاجقة أيضا أي مظهر من مظاهر التجنيد لدى الخلفاء، لابل خلعوا من حاول أن يجند الجند ضدهم، واجبروا الفقهاء على إصدار فتاوي تجيز خلع الخلفاء، وبخاصة من أخذ بعد الجند للاطاحة بهم، والأمثلة كثيرة كما مر بنا قبل قليل ية ارجاع ناصر تول ناطق - تونه خـ العلاقات كيف نارج داخل أراد الخليفة الناصر لدين الله أن يعد قوة عسكرية من أهل العراق الذين هم على تماس باحداثه يعانون ضغط السلاجقة، ويشاهدون ما يفعلوه بالناس قوة عسكرية لا تتحمل الدولة تكاليفها من حيث الرواتب والملابس والتدريب والسلاح، فضلا عن تخليص البلاد من شقاوة بعض الغير منضبطين من هؤلاء الفتيان .

اذن اصبح الهدف والأسلوب واضحا لدى الخليفة الناصر لدين الله، فالسلاجقة لديهم الجيش النظامي والسلاح والمال والخبرة القتالية، والخليفة الناصر لدين الله لديه هؤلاء الناس الذين ربطهم بنفسه وجعلهم تابعين له جاهزين لصد أي طاريء في العراق، وحاول الخليفة الناصر لدين الله أن يجند كل الأمراء التابعين له أو الذين يتبعونه بالولاء، ليجعلهم ضمن قوة الفتوة كشهاب الدين الغوري، وصلاح الدين الايوبي وغيرهم من امراء الاطراف. وكان الفتيان يظهرون للعيان وهم حاملي السيوف ويرمون بالبندق او المقاليع واصبحوا جندا غير نظامي في العراق عامة وبغداد خاصة، ونحن نعرف أن بغداد كانت مستهدفة من كل الطامعين للحصول على التقليد من الخليفة العباسي، وفرض سيادة من يسيطر على بغداد على بقية أرجاء العالم الإسلامي من خلال الخليفة العباسي الموجود في بغداد.

الناصر لدين الله وتوحيد جبهة العراق:

تولى الخلافة الناصر لدين الله وحدود العراق الإدارية لاتتجاوز مناطق وسط العراق، فعمل على تكوين تحالفات وعلاقات من خلال ونه خليفة وتهمه مصلحة المسلمين، صحيح أنه فشل في بعض هذه لعلاقات، وأخطأ في بعض، إلا أنه بذل جهده، والعامل قد يخطأ أو صيب ولا يمكن لكل واحد منا أن يتخذ قرارا صائبا على طول الوقت، كيف الحال في ذلك الوقت، وكثير من الأمور معقدة، وتخضع لعوامل خارجة عن ارادة الفرد والدولة معاً، فضلا عن وجود تحالفات خارجية داخلية كبيرة، فالناصر لدين الله تولى الخلافة ومعظم بلاد الشام تحت سيطرة الصليبية تدعمها البابوية بكل ما تملك من امكانات مادية بشرية ومسخرة كل السفن الأوربية التجارية لنقل المؤن والذخيرة الرجال، لتحقيق حلم البابوية بتوحيد مسيحيي العالم تحت زعامة البابا في وما، هذا على الطرف الغربي من بلاد الشام، اما في بلاد الاندلس فقد اخذت المدن الاندلسية تتهاوى أمام تحالفات الغرب

الأوربي، وبدأت خسر المدن والمواقع الواحدة تلو الأخرى، وفي مشرق البلاد الإسلامية نهرت في هذا الوقت قوة جديدة هي الدولة الخوارزمية التي أرادت ان حل محل السلاجقة، وحلت محلها فيما بعد، وقاومت الدولة القره خانية ب بلاد ماوراء النهر، ودخلت في صراعات مع الدولة الغورية التي هرت في بلاد الغور، ولم تنته تلك المشاكل بين الدولتين، حتى متطاعت الدولة الخوارزمية من اسقاطها سنة 612هـ / 1215م، وقضت دولة الخوارزمية كما مر بنا على الدولة القره خانية في بلاد ماوراء النهر.كما تطلعت الدولة الخوارزمية إلى السيطرة على العراق، وأرادت ان تحل محل محلها في بغداد وتسير الخليفة العباسي وفق مشيئتها ، وتفرض على الخليفة العباسي ارادتها كما فعل من قبلها البويهيين والسلاجقة اما المناطق المحيطة بالعراق، فقد كانت مقسمة فاربيل اتابكية والموصل اتابكية وحلب اتابكية ودمشق اتابكية والأيوبيين في بلاد الشام ومصر قد قنعوا بدول صغيرة لاتتعدى دويلات المدن التي لا تستطيع ان تلبي ابسط احتياجاتها من أي شيء من الغذاء او الدواء أو الطعام او العلف، أو تستطيع حتى ان تدافع عن نفسها ضد اية دولة تهاجمها، بل اخذت تقيم لها علاقات وتحالفات هزيلة، ولا مانع ان يكون بعض من هذه التحلفات مع القوى الصليبية في المنطقة. فبالله عليك ياخي القاريء الكريم كيف يمكن ان يفكر هذا الخليفة بطريقة قويمة، الإنسان منا عندما يقع في مشكلة أو عمل غير جيد، نقول ان الظروف المحيطة به أجبرته على هذا للسلوك دون ذلك. الكل يتطلع إلى الخليفة الناصر لدين الله، وكأنه البلسم الشافي لحل جراح الأمة الإسلامية، فعليه ان يحرر بلاد الشام من الصليبيين، ويطردهم خارج حدود بلاد الشام، وان يعيد الصاع صاعين للدولة البيزنطية، التي كانت وراء مشاكل بلاد الشام، ودخول الصليبيين إلى المنطقة، وعليه أن يجهز الجيوش ويعيد السيادة الإسلامية على بلاد الأندلس، ويوصل النفوذ الإسلامي إلى حدود بلاد الغال وعليه ان يوقف زحف وتطلعات الدولا الخوارزمية، ويعيدها إلى رشدها كدولة تأتمر بأمر الخليفة الناصر لدين الله .لكي يكون جوابنا صحيحا ومنطقيا علينا معرفة امكانات الخلافه وقدراتها المادية والبشرية، كانت ارض الخلافة العباسية على عهد الخليفه الناصر لدين الله محدودة بشكل لا يتصوره العقل، مناطق نفوذ الخليفة تمت من تكريت شمالا إلى البصرة جنوبا، ومن طريق خراسان شرقا الى الانبار غربا، هذه دولة الخلافة، فما هي امكاناتها المالية والبشريه والعسكرية، قياسا الى اية دولة من دول العالم الاسلامي (الخوارزمية او الغورية او الأيوبية) ستكون نتيجة المقارنة ان الخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر لدين الله كانت تفتقر إلى كل شيء فضلا عن العمق الاستراتيجي من الناحية العسكرية والاقتصادية والبشرية، فالدولة التي لديها عمق استراتيجي، اذا اندحرت في موقعة تنسحب الى العمق، واذا خسرت في معركة مكانة اقتصادية تستعيض عنها بمنطقة أخرى، واذا خسرت أعداد من جيشها تستطيع سحب قوات من مناطق اخرى. ما هو الحل برأيك عزيزي القاريء الكريم؟ ! الجواب لاقدرة عسكرية بدون

همة والهمة لاتأتي من فراغ، فلا بد من برنامج والبرنامج لا ينفذ الا من خلال بذل الاموال، والجيش لا يبني من دون عقيدة عسكرية وتدريب يؤكد هذه العقيدة العسكرية والمال اهم شيء في أي تحرك، فمن لديه المال يستطيع ان يجند الجند للقتال، فلا يمكن أن تعد جيشا دون رواتب واذا اعددت جيشا بدون تدريب وامكانات ورواتب، فالنتيجة ستكون واضحة وهي خذلان الدولة في احرج حظاتها والامثلة على ذلك كثيرة من واقع العراق الحالي وواقع العالم لمعاصر، فكم من قائد تبجح بقوة جيشه ثم خذل، لأنه هو قد خَذَل جيشه بل ان يهزمه الأعداء . لقد سعى الخليفة الناصر لدين الله بكل ما أوتي من قوة وهيبة ونفوذ اى اثبات وجوده كخليفة في بغداد، وفي مختلف أرجاء العالم الإسلامي، لقد معى لم يترك فرصة الا واستغلها لصالح الخلافة العباسية، فقد ارسل الجيوش و الجيوش، لمحاربة بقايا السلاجقة او الدولة الخوارزمية، فعلى سبيل مثال لا الحصر فقد جهز الخليفة الناصر لدين الله جيشا لمحاربة بقايا سلاجقة ففي سنة 584هـ /1188م ، فكان يؤيد طرفا دون آخر بهدف ضعاف السلاجقة، فقد ساند الخليفة السلطان قزل ضد السلطان طغرل عين على رئاسة الجيش العباسي وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس صل الجيش العباسي الى ،همدان لم يلحق بالجيش العباسي قزل، فانفرد طغرل بالجيش العباسي، وهزمة واسر ،قائده، وهذه احدى اخطاء الخليفة الناصر لدين الله، فكيف يولي قيادة الجيش لوزير، ونحن نعرف أن من يحسن قيادة الجيش هو القائد العسكري، وقد قال بعض الشعرا شيرة والخدام الضيافة في هذه المناسبة :

اتركونا من جانحات الجريمه .... طلعة طلعة تكون وخيمة
بركات الوزير قد شملتنا .... فلهذا امورنا مستقيمة
خرجت جندنا تريد خراسان.... جميعا بابهات عظيمة
واتونا ولا بخفي حنين .... بوجوه سود قباح دميمة

وفي سنة 585هـ / 1189م سيطر الخليفة الناصر لدين الله على مدينة تكريت ونواحيها، إذ حدثت منافسات بين الأخوة الحاكمين لمدين تكريت ولم ينجحوا في تسوية خلافاتهم، فقتل بعضهم، وقد استغل الخلي الناصر لدين الله هذه الفرصة، فأرسل جيشا إلى مدينة تكريت وحاصر وسيطر على قلعتها ، وأعادها إلى سيادة الدولة العباسية مباشرة، وحد نفس الشيء في حديثة وعنه، إذ أرسل الخليفة الناصر لدين الله جيشا سنة 586هـ / 1190م، وظل الحصار مفروضا على حديثة حتى نفذ الاقوات واستسلمت حاميتها وعادت حديثة تحت حكم الخليفة مباشرة.وعندما وجد الخليفة الناصر لدين الله المجال مناسبا للسيطرة على احد القلاع في الاحواز ارسل اليها جيشا في سنة 589هـ / 1193م، بعد أن أساء واليها السابق معاملة الجند العباسي في هذه القلعة . وفي اواخر حكم الخليفة الناصر لدين الله اصابه الشلل النصفي في ثلاثة سنين، لايقدر على شيء، وربما كان

يفعل الشيء وضده، ولم تعجب تصرفات الخليفة الناصر لدين الله مؤرخنا ابن الاثير فقال عنه: ((يطلق في طول مرضه شيئا كان احدثه من الرسوم الجائرة، وكان قبيح السيرة في رعيته، ظالما فخرب في ايامه العراق وتفرق اهله في البلاد، واخذ أموالهم وأملاكهم، وكان يفعل الشيء وضده، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان، فبقيت مدة ثم بطلها، واطلق بعض المكوس التي جددها في بغداد خاصة ثم اعادها، وجعل جل همه في رمي البندق والطيور والمناسيب، وسراويلات الفتوة، فبطل الفتوة في البلاد جميعها، الا من يلبس منه سراويل يدعى اليه، ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة))

ب الظاهر بأمر الله :

هو ابو نصر محمد بن الناصر، ولد في المحرم من سنة خمس مائة واحدى وسبعين للهجرة، وامه ام ولد تركية تعرف بـ اخشو او بقجة تولى الخلافة بعد وفاة والده الناصر لدين الله سنة ستمائة واثنين وعشرين للهجرة، وكان قد عين وليا للعهد ثم عزل واعيد بعد ذلك في عهد والده (عين وليا للعهد سنة 585هـ وعزل سنة احدى وستمائة واعيدت الخطبة له سنة ستمائة وثمانية عشر). تولى الخلافة وعمره اثنان وخمسون سنة، فقيل له ألا تتفسح ؟ قال : لقد يبس الزرع، فقيل: يبارك الله في عنرك اقال: من فتح دكانه بعد العصر ايش يكسب ونقش خاتمه ((راقب العواقب))، كان حليما محبا للعلم وأهله، امر برد المظالم التي حدثت اثناء مرض والده الناصر، روى الحديث و اجازه لعدد من العلماء والمشايخ اعتق الكثير من الجواري واخرجهن بما كن يملكن، وزاد في عطاء المماليك، وتقدم إلى أرباب الدولة بالعدل والأنصاف، والى ولاة السواد بتخفيف الوطأة وأنصاف المتعاملين والإحسان إليهم والرفق بهم، وكان كثير التردد إلى المارستان والتطلع على أحوالهم والوصاة في حقهم رفقا بهم ،ورحمة ولما ولي الخلافة أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العمرين، فلو قيل إنه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان صادقا واعاد الناس الى الخراج القديم وخفف عنهم، فمن ذلك أن اهل باعقوبا تظلموا من أبيه الناصر لدين الله حول قيامه بزيادة خراجهم ثمان مرات أي كانوا يدفعون للدولة ثمانون الف دينار، وكانت باعقوبا تدفع في أول الأمر عشرة آلاف دينار في كل سنة، فأمر بإعادتها إلى خراجها الأول تخفيفا عن الرعية وترفيها لهم على العيش بكرامة ورفاه ، ولما أعاد الخراج الى الخراج الأول، اجتمع قسم من الناس، وطالبوا الخليفة بأخذ خراج الاشجار على كل شجرة حية منتجة، فوافقهم على هذا لما فيه مصلحة الناس ولم يضجر أو يتألم لنقصر الخراج. كما رفع الظاهر كذلك ضريبة الذهب عن الناس ومن عدل ان صاحب ديوان واسط جاءه ومعه أزيد من مائة الف دينار من ظلم فردها على اربابها، وقال: ما لنا بها حاجة، ورخصت الأسعار في عهده وكان اذا غلا السعر امر باطلاق ما في مخازن

الدولة لتباع حتى يرخصر السعر، ومنع الناس من التجسس على بعضهم ومنع حراس الليل مر الكتابة الى الديوان بما تحدث من زيارات ليلا في المحلات واسما الاشخاص، الناس يلقون من ذلك مشقة عظيمة، إذ قد تؤدي كلم باطلة بحياتهم. كما اخرج من السجون من لم يكن مذنبا، ووجد في بيت مو داره الوف رقاع كلها مختومة، فقيل له: لم لا تفتحها؟ قال؟ لاحاجة لنا فيه كلها \ 46 وامر قاضيه بتوزيع مبلغ قدره عشرة آلاف دينار في اه السجون ممن لم يكن معه مال، فوزعها القاضي. كما فرق بين العلماء واه الدين في ليلة عيد الفطر مائة الف دينار . له صاحب المخزن: كانت في ايام ابائك تمتليء، فقال: ما جعلت الخزائن لتمشيء، بل تفرغ وتنفق في سبيل الله، فان الجمع شغل التجار وكتب إلى وزيره عند توليه الخلافة بعد البسملة رسالة جاء فيها: اعلموا أنه ليس امهاتنا إهمالا، ولا إضاؤنا إغفالا ، ولكن لنبلوكم أيكم احسن عملا، وقد عفونا لكم ما سلف من اخراب البلاد، وتشريد الرعايا ... يأمركم سلطانكم بالعدل وهو يريده منكم، وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم، يخاف الله، فيخوفكم مكره، ويبدي ابن الاثير تأسفه على الظاهر بامر الله فيقول: ((ولم ازل علم الله سبحانه من تولى الخلافة، أخاف قصر المدة، لخبث الزمان وفساد اهله واقول لكثير من اصدقائنا ما اخوفني أن تقصر مدة خلافته، لأن زماننا واهله لا يستحقون خلافته، فكان (كذلك)) ، كما عالج مشكلة ارتفاع الاسعار في الموصل، فأمر بحمل الغلات اليها حتى انخفضت الاسعار بها، واطلاق ما في مخازن الدولة من مواد تموينية للتخفيف عن الرعية في الجزيرة والموصل كما امر القاضي بان يحل مشاكل الناس مباشرة من غير مراجعته اذا قدم المشتكي البيئة الصحيحة والشهود، كما اقام رجلا صالحا في ولاية الحشرية (وهم الاقارب الأباعد من الاسرة العباسية وبيت المال وقال له: اعط كل ذي حق حقه، واتق الله ولا تتقي سواه. وقد روى الحديث عن ابيه الناصر لدين الله وروى عنه ابو صالح نصر بن عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلي (الكيلاني قدس الله سره ، توفي في سنة ثلاث وعشرين وستمائة وكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة . . ولما توفي جاء المعزون من بلاد عديدة لتعزية ولده المستنصر بالله، فجاء وفد الموصل برئاسة ابن الأثير نصر الله رسولا من صاحب الموصل برسالة في التعزية أولها: ماالليل والنهار لا يعتذران وقد عظم حدثهما، وما للشمس والقمر لا ينكسفان وقد فقد ثالثهما: فيا وحشة الدنيا وكانت أنيسة ووَحْدَةً مِّنْ فيها لمصرع واحد

ج المستنصر بالله : هو أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله، تولى الخلافة بعد وفاة والده سنة ثلاث وعشرين وستمائة ولد سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ليه ام ولد رومية اسمها .شيرين وكان نقش خاتمه ((العفو بك أولى)). كان من الخطاطين المجيدين ميالا إلى العلم وأهله). سار على سيرة والده الظاهر بأمر الله، وسلك في الخير والإحسان، ونشر العدل في الرعايا وبذل الانصاف في القضايا، وقرب أهل العلم والدين، وبنى المساجد والربط والمدارس والمارستانات، وأقام منار

الدين وقمع المتمردين، ونشر السنن، وكف الفتن، وحمل الناس على أقوم السنن، وقام بأمر الجهاد وجمع الجيوش لنصرة الإسلام، وحفظ الثغور وافتتح الحصون ، وقال الموفق عبد اللطيف: (بويع ابو جعفر ، فسار السيرة الجميلة، وعمر طرق المعروف الدائرة، وأقام شعائر الدين، ومنار الإسلام، واجتمعت القلوب على محبته ، والالسن على مدحه، ولم يجد أحد من المتعنته في معيبا). وكان جده الناصر يقربه ويسميه القاضى لهداه وعقله وانكار ما يجد من المذكر وقال عنه الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري كان ستنصر راغبا في فعل الخير مجتهدا في تكثير البر، وله في ذلك آثار جميلة، وأنشأ المدرسة المستنصرية، ورتب فيها الرواتب الحسنة لأهل العلم وأمر فنودي في بغداد بالعدل والاحسان وأن من كانت له حاجة أو مظلمة يطالع بها، تقضى حاجته وتكشف مظلمته، وكان السعر قد ارتفع بوفاة أبيه، فأمر أن تباع غلات الدولة بارخص من سعر السوق بمقدار الثلث) . وكان الخليفة المستنصر بالله ذا همة عالية وشجاعة واقدام عظيم وقصدت التتار البلد، فلقيهم عسكره، فهزموا التتار هزيمة مذكرة، وكان له اخ يقال له الخفاجي فيه شهامة زائدة، وكان يقول: لئن وليت لأعبرن بالعسكر نهر جيحون، وأخذ البلاد من أيدي التتار واستأصلهم، فلما مات المستنصر، لم ير الدويدار ولا الشرابي تقليد الخفاجي خوفا منه، واقاما المستعصم بالله. وكان المستنصر بالله قد استكثر من الجند جدا، وكان مع ذلك يصانع التتار ويهاديهم ويرضيهم . واستعاد بهذا الجيش القوي اتابكية اربيل بعد وفاة واليها مظفر الدين كوكوبوري، فاصبحت تابعة للخلافة العباسية مباشرة. وحرصا من الخليفة المستنصر بالله على الرعية، ومعاملاتهم اليومية ورواتبهم فقد أمر بمسك نقود مضبوطة تتقيد بها الدولة والناس في التعامل، فقد أمر سنة 632هـ /1234م بضرب الدراهم الفضية ليتعامل بها بدلا من قراضة الذهب، فجلس الوزير وأحضر الولاة والتجار والصيارفة، وفرشت الأنطاع، وأفرغ عليها الدراهم، وقال الوزير: قد رسم مولانا أمير المؤمنين لمعاملتكم بهذه الدراهم عوضا عن قراضة الذهب رفقا بكم وإنقاذا لكم من التعامل بالحرام من الصرف الربوي فأعلنوا بالدعاء، ثم أديرت بالعراق وسعرت كل عشرة بدينار قراضة فقال الموفق أبو المعالي القاسم بن أبي الحديد لا عدمنا جميل رأيك فينا ورسمت اللجين حتى الفنا. وما كان قبل بالمألوف ليس للجمع كان منعك للصر انت باعدتنا عن التطفيف ف ولكن للغدل والتعريف ومن مناقب الخليفة المستنصر بالله انه في أحد المجالس مدحه أحد الشعراء بقصيدة جاء فيها:لو كنت يوم السقيفة حاضرا كنت المقدم والامام الأورعا فرد احد الحاضرين فقال: قد كان جده العباس رضي الله عنه حاضرا، فخلع الخليفة على الشخص الذي ردّ ونفى قائل الشعر الى مصر. وقد حفل عصره بخيرة الادباء والعلماء والمحدثين والجغرافيين من امثال ياقوت الحموي، صاحب كتاب معجم الادباء ومعجم البلدان، ويحي بن معطي بن نقطة والحافظ عز الدين ابن الأثير، صاحب كتاب الكامل في التاريخ وغيره، وبن فضلان والشاعر الصوفي عمر بن الفارض المعروف

بقصيدته الثانية، والمتصوف الكبير عمر السهروردي، مؤلف كتاب عوارف المعارف والمؤرخ المشهور ابن شداد، والبضياء ابن الاثير صاحب كتب الادب ومنها المثل السائر.وكان المستنصر بالله إلى ذلك سمحا جوادا كثير النفقات في وجوه البر، روي عن الخليفة الناصر لدين الله عندما نظر إلى بركة ماء في دار الخلافة وقال: ترى اعيش حتى أملأها ذهبا؟ ولما تولى المستنصر بالله الخلافة قال: ترى اعيش حتى افرغها، لأن المستنصر بالله كان يرى أن تصرف هذه الأموال في وجه الخير بدلا من اكتناز المال والناس في أمس الحاجة له) كما اهتم الخليفة بالفتوة ولبس سراويلها، واعتبر نفسه حاميا النظام الفتوة ونتيجة لهذه السمعة الحسنة فقد أرسل والي اليمن إلى الخليفة المستنصر بالله يطلب منه تقليدا بحكم بلاد اليمن بعد موت الملك المسعود بن الملك الكامل، فبعث إليه التقليد بولاية اليمن أما عن دور الخليفة المستنصر بالله في توحيد الجبهة الإسلامية ضد المغول، فقد سعى بشكل حثيث لتحقيق تحالفات إسلامية مع الدول والأقاليم المجاورة للعراق، محاولا أن يخفف من هذه الصراعات التي تحدث بين مختلف الإمارات ولعب دورا في حل كثير من هذه الإشكالات، ومن بين هؤلاء الحكام كان الأيوبيين أمراء الشام والجزيرة ومصر، كما حاول تشكيل جبهة موحدة المجابهة التحدي المغولي، وقد استجاب له الملك الكامل، وارسل له قوة عسكرية قوامها 10000 رجل لمساعدة الخليفة في مواجهة المغول ووصلت إلى الخليفة قوة عسكرية اخرى من حاكم شهرزور نور الدين ارسلان ابن زنكي قوة عسكرية اخرى تقدر ب 88 جندي، اما دمشق فقد ساندت الخلافة العباسية وارسلت لها ثلة من جنودها للدفاع عنها ضد المغول، وهذا ان دل على شيء فإنما يدل على الترابط المصيري الذي ربط هؤلاء الأمراء بالخليفة العباسي . كما حاولت الأندلس الحصول على التقليد من الخليفة العباسي المستنصر بالله، فقد أرسل بنو هود مبعوثهم إلى بغداد، حيث استقبل بحفاوة من قبل الخليفة، وقد أجاب الخليفة إلى طلب تقليد بني هود حكم جزيرة الأندلس، وحين وصل التقليد إلى بني هود، فرحوا فرحا شديدا، وتم قراءة منشور الخليفة على أهل الأندلس أما عن علاقة الخليفة العباسي المستنصر بالله بالدولة الخوارزمية فقد تحسنت مقارنة مع فترة الخليفة الناصر لدين الله، وترددت الرسل بين الطرفين لإعادة الخطبة في أرجاء الدولة الخوارزمية، وتم الاتفاق على إعادة الخطبة، وقد أعطى الخليفة المستنصر بالله تقليد خراسان وبلاد ماوراء النهر لجلال الدين منكبرتي في سنة 625هـ/1227م، وبدأ عهد جديد من التحلفات بين الدولة الخوارزمية والخلافة العباسية، وبخاصة وان العالم الإسلامي كان يهدده الخطر المغولي القادم من الشرق، وقد أرسل الخليفة المستنصر بالله التقليد في سنة 626هـ/1228م مع وفد إتمام الصلح بين الاثنين، وقد أجاب السلطان الخوارزمي إلى ذلك، وأرسل مبعوثا إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله، حيث تم الاتفاق وارسل له التقليد، وبدأت العلاقة تتحسن بين الاثنين، وسادت الرسائل المتبادلة بين الدولة الخوارزمية والخليفة العباسي تحمل طابع الاحترام والتبجيل

للخليفة العباسي، ففي رسائل الخليفة نلمس (خادمه المطوع متكبرتي بن سلطان سنجر ورسائل جلال الدين منكبرتي تحمل ((سيدنا ومولانا امير المؤمنين وامام المسلمين وخليفة رب العالمين، امام المشارق والمغارب، والمديف على الذرة العليا من لؤي بن غالب)) توفي المستنصر في يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة مئنة اربعين وستمائة

د. المستعصم بالله

هو ابو احمد عبد الله بن أبي جعفر المنصور المستنصر بالله ولد سنة تسع وستمائة وامه ام ولد اسمها هاجر كانت صالحة دينة كثيرة الخير والبر والعطاء، بويع له بالخلافة في جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة كان جميل الوجه حسن الصورة ونقش خاتمة اعتصمت بالله روى كجده وابيه الحديث ووجد بخطه اربعين حديثا، وكان كريما متدينا سليم الباطن، حسن الديانة، قال عنه الشيخ قطب الدين: كان متدينا متمسكا بالسنة كأبيه وجده ، ولكنه لم يكن مثلهما في الشجاعة والحزم وعلو الهمة . وبدلا من أن يسير على خطة والده المستنصر بالله في تدريب الجند، كان خليا من الرأي والتدبير، فأشار عليه الوزير بقطع أكثر الجند، وان مصانعة التتار واكرامهم يحصل به المقصود وهو النجاة منهم، وهو عكس مما كان ، وفي عهده أحتل الصليبيون مدينة دمياط، في سنة 647هـ / 1249م، وكان على ملك مصر آنذاك الملك الصاح يصارع الموت، فأخفت زوجته شجرة الدر موته لمدة ثمانين يوما، وأرسلت إلى ولده تور انشاه بالمجيء ثم قتلته، وأصبحت هي الحاكمة، وقد علق الخليفة المستعصم بالله على ذلك فأرسل رسالة إلى أهل مصر: ان عدمت الرجال عندكم حتى تولوا النساء، فاكتبوا إلينا نرسل لكم برجل من قبلنا يليكم يصلح شأنكم ، ثم استعاد المصريون دمياط، وأسر قائد الحملة الملك ويس التاسع . وقتل على يد المغول، حيث جعلوه في غرارة (كيس) رفس إلى ان مات.

الفصل الخامس :-

ظهور المغول وزوال الخلافة العباسية

يتضمن هذا الفصل ظهور المغول قوة كبيرة ومؤثرة في العالم في ذلك الوقت وهو القرن السابع الهجري الثالث عشر للميلاد قيامهم بحملات منظمة و ذكية وسريعة ومفاجأة ضد مختلف مناطق العالم المتحضر أنذاك ومنها البلاد الإسلامية متناولين ظهورهم ودورهم في تخريبي العالم وأسباب نجاحهم و أسباب فشل الدول في مقاومتهم مقاومتهم

- ظهور المغول

المغول هم مجموعة من القبائل البدوية التي كانت تسكن في صحراء منغوليا وتمارس هذه القبائل تربية المواشي والخيول اللي تبيع منتجاتهاإلى المناطق المتحضر وتشتري بدلها ما تحتاجه من احتياجات،منطقة منغوليا من بين المناطق الأقصى مناخاً في العالم المعروف أنذاك تتفاوت درجة الحرارة فيها بشكل كبير بين الليل والنهار وبين الصيف و الشتاء ويتطلب من سكانها تحمل شظف في العيش وقسوة الطبيعة التي لا تمنحهم الا القليل من مواردها وتعيش هذه القبائل عيشة ترحل الماء والكلأ وتتقاتل فيما بينها من اجل ذلك، وتحكم المغول عادات وتقاليد غريبة فرضها عليهم زعماؤهم ، اصبحت مجرى العادات والتقاليد ، كان المغول الالتزام بها، وغالبا ما تتقاتل هذه القبائل المغولية سوة متناهية فبيد ، بعضهم بعضا ويستعبدهم كما حدث مع التتار الذين قسى عليهم المغول واستعبدوهم قبل خروجهم من منغوليا ، واما نوع الحياة التي يحياها المغول ، فإنه يمكن تقسيم القبائل المغوليه إلى قسمين في أواخر القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد إلى قبائل روعاة في المراعي والى قبائل صيادين يصيدون السمك من الانهار ويصيدون الحيونات في الغابات والمناطق الثلجية ذات الفراء وفئه ثالثة تصيد الظباء بواسطة الحبال او النبال ، وفي المناطق الثلجية يستخدمون العربات الخشبية التي تجرها الكلاب الصيد وينتنقلون تعباً لوجود صيدهم .لقد شكل سكان منغوليا مشكلة كبيرة للدول المجاورة لهم في حيثما ضعفة الدول المجاورة لهم والتقوى سكان منغوليا ووجد أن الفرصة السائحة لهم للخروج إلى المناطق الحضرية ونهبها وتخريبها، خرجو واذقو سكان البلاد المتحضره زراعياً وصناعياً وعلمياً الذل والهوان ، وهذه الحضارة في نظر المغولي ليست إلا وسيلة لخدمته ،وتقديم العون والاتاوة له والتلذذ بتعذيب الاخرين ، وقتلهم وسلب حريتهم، وقد رأينا في تاريخ الصين ذلك البلد الذي ابتلي بشر المغول منذ القدم، بحيث اضطرت إمبراطورية التانغ الى بناء سور الصين العظيم الذي يمتد على طول الحدود مع منغوليا والمناطق المحاذية لها، وانشأت على طول هذا السور المستوطنات العسكرية وحشدت لها الاف الجنود من اجل ان يقف هذا السور بوجه سكان الصحاري الذين اذا ماوجدوا الفرصة الملائمة هجمو على الصين ومزارعها وسهولها ومصانعها واستعبدوا سكانها واذلوهم وجعلوهم عبيدا لهم كما لعب سكان منغوليا على الحبلين في بعض الاحيان اذ وقفوا الى جانب حكمومة صينية ضد اخرى كما فعلوا مع سلالة الكين وكما ذكرنا فقد جرت محاولات عديدة من اجل توحيد القبائل المغولية في منغوليا، لكنها كانت تبوء بالفشل حتى تمكن جنكيز خان(تموجين) من توحيد هذه القبائل المتناحرة والمختلفة في بينها ، وقادها لتغزو وتدمر العالم المعروف انذاك ، وسبب قولي تدمير العالم لان المغول المحاربين والشيوخ والنساء والاطفال والمرضى ولم تسلم منهم الجسور والقناطر والمزارع والحقول والجبال والاشجار ، إلا لعنة الله على المغول وعلى من سار على دربهم من الامم حتى تقوم الساعة ويرث الله الارض ومن عليها .بدأت قوة المغول تظهر على

الوجود على يد جنكيزخان الذي استطاع ان يوحد القبائل المغولية ويقضي على المناوئين له ، ولاسيما ان والده قد قضى على البقية الباقية من قوة التتار ، وقد عانى الامرين في بداية حياته حتى تمكن من ضم المغول تحت لوائه واعلنلوه زعيما على المغول بحدود سنة1188م/584هـ ، بعد عقد مجلس القبيلة (القوريلتاي)وبحدود سنة 1206م/603هـ سيطر جنكيزخان على معظم الشطر الغربي من منغوليا واتخذ لقب الخان الاعظم وارتدى رداء السلطنة، واتخذ لواء لجيشة يتكون من علم يتدلى منه اذيال تسعة افراس بيضاء، ورسم على هذا اللواء القمر في المحاق . كما نظم الجيش والوحدات العسكرية واصدر قوانين الياسا والتي حددت القانون الذي يلتزم به الجندي المغولي في تعامله مع المغول ومع اعداء المغول، واقتطف منه بعض الفقرات لتدل على مدى ضحالة تفكير المغول وتخلفهم في ذلك الوقت قياسا الى الامم المجاورة لهم كالبلاد الاسلامية التي بلغت الرقي في نظمها الدينية والاقتصادية والاجتماعية ،او بالمقارنة مع بلاد الصين او حتى بلاد الهند:-الزمهم ان لايتعصبوا لشيء من المذاهب .من اطعم اسير قوم او كساه بغير اذنهم قتل .منعهم من غسل ثيابهم، بل يلبسونها حتى تبلى.منعهم من ان يقال لشيء نجس، فان جميع الاشياء طاهرة.وغيرها من الوصيا البالية التي تدل على سطحية تفكيرهم

بعد ذلك اخذ جنكيز خان يعد العدة للتوجه صوب البلاد المجاورة ، واتخذ من مدينة قراقورم عاصمة للمغول، وتوجه الى بلاد الصين التي ساندت المغول وامدتهم بالجند والسلاح وكجزء من رد الجميل للصين قام المغول بمهاجمة مملكة هسيا Hsiaالتي تقع الى الغرب من النهر الاصفر (هوانغ هو) . كانت الصين اول هدف لحملات جنكيزخان الحربية كما ذكرنا ذلك قبل قليل، وكما هوه معروف فان بلاد الصين كانت مقسمة الى دولتين الصين الشمالية وعاصمتها ينكين (قرب بكين) وتحكمها إمبراطورية الكين، والصين الجنوبية وتحكمها اسرة سونج، وكانت اسرة الكين هي التي يخضع المغول لها فيما مضى ، وقد استطاع جنكيزخان ان ينزل هزيمة ساحقة بجيش دولة الكين، وبهذا فقد خضعت لجنكيزخان كل الاراضي الواقعة جنوب سور الصين العظيم وذلك سنة 1211م/608هـ . ولما كانت لدى جنكيزخان معلومات مهمه عن الصين وأوضاعها وثرواتها، خرج بنفسة على رأس القوات المغولية واحتل شمال الصين . وقد مهدت هذه الانتصارات لجنكيزخان الطريق لتوجية جيوش أخرى الى مختلف مناطق العالم الاخرى ، وأنا اخالف كل من يقول انه لم يكن في نية جنكيزخان غزو البلاد الاسلامية ، اذ بنيت كلمات جنكيزخان خططه المستقبلية ولو قرأنا رسالته الى امبروطور الصين لفهمنا أهداف المغول الاخرى .وقد شجعت انتصارات جنكيزخان هذه على اعداد ثلاثة جيوش كبيرة بما انضم الية من القبائل المغولية، قاد هوه وابنه تولي الجيش الاول وقاد الجيش الثاني ابناه جغتاي واوكتاي حيث كانوا على ميمنة ابيهم واتجهوا نحو الجنوب ، أما الجيش الثالث فقد قاده أخوة جنكيز خان واتجهوا نحو المحيط الهادي

وقد مكنت هذه القوة الكبيرة من تسهيل انتصار جنكيز خان الا ان المقاومة الشديدة التي ابداها الصينيون للدفاع عن بلدهم اوقفت مؤقتا تحركات المغول في مرتفعات شانتونغ . ثم استغل المغول الاوضاع في الصين وسيطروا على مدينة بكين سنة 612هـ/1215م وسقوط هذه المدينة التاريخية المهمة بيد المغول اعطى دفعا للمغول وولد احباطا لدى الصينيين ، كما افاد احتلال هذه المدينة المغول اذ سيطروا على مصانع البارود وتعرفوا على كيفية استخدامه في الحروب . كما كان لسقوط بكين صدى كبير جداً لدى المسلمين لما تشكله إمبراطورية الصين لديهم من مكانة واهمية ، فمعظم شأن المغول لدى المسلمين ولاسيما المناطق المحاذية للصين فيما يعرف ببلاد التركستان. وبعد احتلال جنكيزخان لبلاد الصين توجه الى منغوليا لترتيب واوضاعها الداخلية ، ثم انطلق باتجاه الغرب حيث قضى على قبائل النايمان واسقط مملكتهم ، وقتل ملكهم ((تايانك خان)) ، وفر ابنه ((كوجلك خان))مع جمع كبير من اتباعه الى الدولة القرخطائية حيث اعتقل من قبل الجيش القراخطائي وصار محتجزا عند ملكهم فترة من الزمن . وفي هذه الاثناء حدث خلاف بين محمد خوارزم شاه وبين كوجلك خان رئيس الدولة القرخطائية بسبب عدم دفع الاول الجزية المتفق عليها ، وقد استغل هذه الفرصة كوجلك خان ووجدها فرصة مواتية له لإستعادة مركزه وتجميع قواتة من جديد فقال لكوجلك خان انه يتوجب عليه ان يساعده ويعيد اليه قواته ويمده بالمال اللازم لمساعدته في القضاء على الدولة الخوارزمية ، فصادفت هذه الفكرة هوى لدى رئيس القراخطائيين، فامده بايمكن ان يمد حليف حليفه ، فجمع اتباعه وكون منهم جيشاً كبيراً، ولكن بدل من ان يحارب الدولة الخوارزمية كما تم الاتفاق عليه ، انقلب على ولي نعمته وتحالفت مع محمد خوارزمشاه على اقتسام املاك الدولة القرخطائية ، وقتل كورك خان وتزوج من ابنته التي كانت تدين بالبوذية ، واقنعته بترك النصرانية واعتناق البوذية التي كانت تدين بها ، وقد التحق به احد الزعماء الفاريين من جنكيزخان وهو(توق خان) زعيم قبيلة المركبت الذي سبق وان فر من امام جنكيزخان ، وكون دولة قوية واخضع كثيراً من القبائل المجاورة له ، ومد سلطانه الى بلاد التبت فامتدت مملكته من حدود التبت حتى املاك الدولة الخوارزمية الاسلامية وقد وقع جراء قيام هذه الدولة كل المسلمين في بلاد ماوراء النهر تحت سيطرتها، ولما كان هذا يدين بالنصرانية ، ثم التنقل الى البوذية ، فقد عامل المسلمين الذين كانو يشكلون اغلب سكان بلاد ماوراء النهر معاملة قاسية جداً ، واجبر بعضهم على ترك ديانته والتحول الى النصرانية او البوذية او ارتداء الزي الخطائي ، ففضل المسلمون الحل الاخير وهو اهون الشرور الثلاثة ، وانقطع رفع الاذان في بلاد ماوراء النهر وهدمت المساجد والجوامع وحولت هذه الجوامع الى اديرة للبوذيين وعبدة البقر، وكان هذا اول اضطهاد ديني تعرض له المسلمين في بلاد ماوراء النهر. والادهى والامر من كل ذلك هو انه اخرج العلماء المسلمين في وائمتهم الى الصحراء ، ثم جادلهم جدالا عقيما، وناظرهم في شؤون

الاديان ولما كان جاهلاً بهذه المواضيع كان يتبع كل الوسائل الدنيئه لتحقيق اغراضه الدنيئه ايظا، وقد انبرى له في احد المناظرات الامام علاء الدين محمد الختني في مناظرة منقطة النظير ويبين له سفه آرائه وزيف معتقده، فلما وقعت عليه الحجه لجأ الى وسيلة العاجز وهي اطلاق السباب والشتائم على الامام ثم امر باعدامه على باب احد المدارس في مدينة ختن . ولم يكن جنكيزخان بالشخص الغافل عن عدوه اللدود كوجلك خان ، فيتركه يقوى ويشتد ساعده ليعود ويهاجمه ويأخذ بثأر ابيه، واذا كان قد غفل عنه فذلك لانشغاله بحربه في بلاد الصين، فلما فرغ من حربه مع بلاد الصين واخضعها ارسل جيشاً كبيراً بقيادة (جبه نويان) الذي توجه الى مدينة كاشغر، فاحتلها بسهوله لعدم مقاومة اهلها وذلك لما اذاقهم من المر والهوان، وهذا هو ديدن الشعوب التي تتاذى وتبتلي بحكام قساة اذ سرعان مايتركها الشعب فريسة سهلة لأي هجوم تتعرض له الدولة وفي احرج اللحظات والامثلة على ذلك كثيرة في تاريخنا الاسلامي وبهذا فليتعظ الغافلون. وقد فر كوجلك خان ، هائما على وجهه ولم يحاول ان يواجه المغول مواجهة حاسمة، واول عمل قام به جبه نويان هو اطلاق الحرية الدينية لكافة السكان وهذا الشيء يشير الى علم المغول بما كان يجري في هذه البلاد من قبل وانهم على علم دقيق بكل شيء وهذا الامر هو الذي مكنهم من الانتصارات في كل المعارك التي خاضوها حتى اسقطوا مدينة بغداد واحتلوا العراق. وقد اعتقل كوجلك خان من قبل بعض الصيادين وسلموه إلى المغول فقتل سنة 615هـ/ 1218م ، وقتل معه كل من وجد من قبيلته من النايمان. كما تعقب المغول زعيما
اخر يعرف ب توق تغان وقتلوه وبهذا خضعت كل المناطق التي كانت في يوم ما من ممتلكات الدولة القرخطائية ، وبهذا أصبح المغول مجاورين لاملاك الدولة الخوارزمية .

ج - علاقة الخلافة العباسية مع الدولة الخوارزمية:-

تنتسب الدولة الخوارزمية الى منطقة خوارزم، التي تقع في الغرب من مجرى نهر جيجون(آمودريا) وكانت هذه المنطقة تخضع لحكم السلاجقة، فعينوا احد الاشخاص ويعرف انوشتكين نائبا عن السلطان السلجوقي في منطقة خوارزم وكان انوشتكين يشغل منصب (الطست دار) واصله من بلاد غرجستان ضعفت الدولة السلجوقية نصب نفسه سلطانا على اقليم خوارزم سنة 490هـ / 1096م ومنذ ذلك الوقت سعى سلاطين خوارزم إلى توسيع نفوذهم على حساب أسيادهم القدامى (السلاجقة) ، كلما وجد الفرصة مواتية لذلك ، وقد تم لهم ما ارادوا عندما توفي السلطان السلجوقي سنجر في عام 552هـ/1157م، فدخلت كل ممتلكات السلاجقة في حوزة الدولة الخوارزمية في منطقة فارس وخرسان. وعندما اعتلى السطان الخوارزمي تكش (568_596هـ/1172_1199م) العرش ، حدث قيام احد بقايا السلاجقة وهو السلطان طغرل الثالث

باستعادة مكانة السلاجقة في العراق ، فأصطدم مع الخليفة الناصر لدين الله ، الذي حث السلطان تكش على القضاء على البقية الباقية من السلاجقة وبهذا زال النفوذ السلجوقي نهائيا وحل محله النفوذ الخوارزمي ، ثم تقلد حكم البلاد التي خضعت للدولة الخوارزمية، بامر من الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، لكن اطماع تكش لم يحدها حدود، فتطلع تكش الى استعادة مكانة السلاجقة في بغداد، وطلب من الخليفة العباسي ان يجدد له دار السلطنة السلجوقية في بغداد ، ليستقر فيه اذا دخل بغداد، فما كان من الخليفة الناصر لدين الله الا ان نقض دار السلطنة السلجوقية من اساسه ، انهاء لاي امل للخوارزميين في دخول مدينة بغداد. وحرض الغوريين عليهم. اما عن علاقة الدولة الخوارزمية مع القراخطاي فقد اتسمت بالعداء مرة وبالصلح ودفع الجزية مرة اخرى ، فقد حرص تكش على الحفاظ على علاقة طيبة مع القرخطاي لانهم بمثابة السد الذي يحجز بلاده عن القبائل الهمجية من المغول وغيرهم وهكذا أخذت الدولة الخوارزمية تتوسع في عهد السلطات علاء الدين محمد خوارز مشاه (596_617هـ/1199_ 1219م) وكان هذا السلطان الخوارزمي هو الذي عاصر ظهور المغول في عهد جانكيز خان واتسم هذا السلطان بل طموح والتوسع وكلما وجد فرصة استغلها ماما أوقعه بمشاكل كان في غنى عنها كما اتسمت علاقته معه الدول الإسلامية بزرع الشقاق بينها بدلا من ان يوحدها لصد خطر كبير قادم من الشرق لايرحم صغيراً ولا كبيراً الا وهو الغرو المغولي وقد شكلت الدولة الخوارزمية خطراً كبيراً على الخلافة العباسية كما ذكرنا ذلك قبل قليل ، وقد شكل اعتلاء علاء الدين محمد خوارزمشاه لرئاسة الدولة الخوارزمية ، مشكلة كبيرة في العلاقات العباسية الخوارزمية ، وكان في بغداد الخليفة العباسي الناصر لدين الله قد استعد لاستعادة هيبة الخلافة العباسية وتخليصها من الطامعين والمستغلين ومن الذين اوصلوا مكانتها الى الحضيض . وقد ادت الانتصارات التي حصل عليها هذا السلطان الخوارزمي الى ايقاعه بالغرور والطيش فاراد ان يجبر الخلافة العباسية على فعل جملة امور قد تخلصت منها منذ فترة من الزمن . وقد وقع الخليفة العباسي في وهم عندما اعتمد على الخوارزميين للتخلص من السلاجقة ، اذ سرعان ماطالب الخوارزميين بنفس امتيازات السلاجقة التي تخلص منها الخليفة العباسي الناصر لدين الله بفضل اجراءاته وبفضل مساعدة الخوارزميين.حاول السلطان الخوارزمي استعادة أمجاد السلاجقة في بغداد بالطرق السلمية والدبلوماسية ، وعندما فشل في ذلك لجا الى الاسلوب العسكري ، فصمم على غزو بغداد وكانت تدفعه في ذلك جملة اسباب

1- كان يرغب في يأتمر الخليفة العباسي بامره، وان تذكر الخطبة باسمه على منابر بغداد ، كما كان الوضع في عهد البويهيين والسلاجقة.

2- شعر السلطان محمد خوارزمشاه بان الخليفة يحتقره ، ويعامله معاملة سيئة اذ انه اهان رسله عندما قدموا له العلم والهدايا التي اهداها للحجاج، في حين انه قبل العلم والهدايا التي وصلت اليه

من جلال الدين حسن الاسماعيلي المشهور ب نومسلمان ، وهو من خلفاء الحسن الصباح مقدم الاسماعيلية ، ورحب برسله وقدم وهذه الهدايا على هدايا خوارزمشاه.

3- عندما استولى الخوارزميون على غزنين عاصمة الغورين سنة 611هـ/1214م، ووضع يده على خزائن شهاب الدين الغوري عثرة على رسائل رسمية من الخليفة يحثة فيها على مهاجمة السلطان محمد والقضاء عليه.

4- تبين للسلطان الخوارزمي ان الخليفة العباسي مستمر بتحريك الممالك المجاورة ضده ، وتدبير المكائد له فقد حرض القرخطائيين على الاستيلاء على املاك خوارزمشاه ووعدهم بتأييد سلطانهم على البلاد التي يستولون عليها من الخوارزميين كما حرض اتابكة فارس واذربيجان وزين لهم الاستيلاء على العراق العجمي وطرد الخوارزميين منه ، كما تحالف مع الاسماعيلية ضد الخوارزمية بل انه راح يحتضن عدة اشخاص من فدائييهم ويحركهم ضد الخوارزميين، فقتلوا (اغلمش) نائب الخوارزميين في العراق العجمي.

5- في رأي السلطان الخوارزمي ان الخلفاء العباسيين قد تقاسمو اعمال الجهاد والقيام بالغزوات وتركوا الجهاد في سبيل الله ، وتقاسموا عن حماية ثغور المسلمين ، وقمع ارباب الفتن والبدع والضلالات، وهذا من اوجب واجبات اولي الامر

وعلى هذا الاساس شرع علاء الدين محمد خوارزمشاه بتطبيق خطتة ضد الناصر لدين الله ورأى انه عقبة في طريق تحقيق اهدافة التوسعية في المنطقة ، ولهذا سعى لتطبيق خطته العملية ، ولما كان الخليفة ولهذا سعى لتطبيق خطته العملية ، ولما كان الخليفة الناصر لدين الله يدين بالمذهب السني ، فقد عارضة خوارزمشاه ، باتخاذ المذهب العلوي مذهبا رسميا للدولة الخوارزمية ، وجمع الفقها ، واجبرهم على اصدار فتوى ضد العباسيين وانهم اغتصبوا الخلافة من العلويين ، وتم عزل الخليفة الناصر لدين الله واسقط اسمه من السگ والخطبة ومن الطراز، واتخذ خليفة علويا يعرف ب((علاء الملك)) وخطب له في ارجاء الدولة وضرب اسمه على النقود ، ونادى به خليفه على المسلمين . كما شرع في اتخاذ الخطوات العسكرية لاكمال خطته فقاد جيش واتجه به نحو بغداد في سنة 614هـ/ 1217م ، وقد وجه الخليفة العباسي امراء اطراف لمقاتلته ، ومنهم الاتابك سعد بن زنكي الذي توجه الى عراق العجم بتأييد من الخليفه لكنه اندحر امام خوارزمشاه، وذلك للفارق بين الجيشين ، ثم اسماله خوارزمشاه الى صفه، وكذالك فعل اوزبك بن البهلوان اتابك اذربيجان الذي اندحر امام الخوارزميين ضمه خوارزمشاه الى صفه ، ويبدو لي ان خوارزمشاه لم يكن يريد يضيع قواته وجهوده في امور ثانوية لان هدفه الاساس واضح وهو السيطرة على بغداد وازاحة الخليفة العباسي منها ومن ثم حكم البلاد التابعة للدولة العباسية وفق سند شرعي وبوجود خليفة علوي ، وخوارزمشاة ينفذ اوامر الخليفة الجديد وهو ليس الا تابع لهذا الخليفة وينفذ اوامره فقط

وعندما ازاح خوارزمشاه كل العوائق توجه الى بغداد وقد ارسل له الخليفة العباسي الشيخ شهاب الدين السهروردي لطلب الصلح الا ان خوارزمشاه رفض عرض الخليفة وصمم على دخول بغداد ، وتقدم بقوائه منطلقا من همدان في الخريف ، فلما وصل اسد اباد هبت عواصف ثلجية اهلكت جيشه ، ورجع خائبا الى كركانج، وهنا تذكر المصادر ان العامة من الناس كانو يقلولون: ان العناية الالهية قد حمت إلاسرة العباسية وهنا تدور رواية مفادها ان الخليفة العباسي عندما عجز عن مواجهة خوارزمشاه استعان بالمغول لمحاربة الدولة الخوارزمية وقد ذكر هذه الرواية المؤرخ ابن الاثير وايده المقريزي في ذلك وخلاصة القول ان الصراع بين الخليفة العباسي الناصر لدين الله السلطان الخوارزمي قد بدد قوى الطرفين واطمع المغول في البلاد الاسلامية، وهذه هي ((الطامة الكبرى التي يصغر عندما كل ذنب عظيم)) فعاد خوارزمشاه ليجد نفسه امام الخطر المغولي الذي لايرحم احدا وقد اخطأ محمد خوارزمشاه في القضاء على الدولة الغورية والدولة القرخطائية وخسر الخليفة العباسي والقوى المويدة له من الايوبيين في مصر والشام وغيرهم ، ووقف وحيدا ليجابه الخطر المغولي ، فبدلا من ان تقف الدول التي ازالها خوارزمشاه سدا منيعا يعرقل تقدم المغول ولا نقول ازيل ذلك الخطر ، فدمر خوارزمشاه بحمقه وغبائه كل الدول الحاجزة التي تقع بينه وبين المغول ، فأصبح الطريق ممهدا امام المغول لدخول بلاد الاسلامية ، وهذا ما تم فعلا .